

التعصب (*)

﴿ تنمة ماسبق ﴾

لم يكن الاستمسك بمرور الدين على عهد العباسيين كما كان على عهد الخلفاء الراشدين فيساووا بين رجل من آحاد يهود وبين أعظم مسلم علما ودينا ومكانة وقربا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كعلي كرم الله الله تعالى وجهه ، ومحاسبون أنفسهم وينكر بعضهم على بعض اذا أخل بالعقل والمساواة ولو في اللقب والكنية كما علمت ، ولكنهم (أي العباسيين) لقربهم من عهد النبوة كانوا على مقربة من ذلك ؛ يحكمون بالشريعة ويتأدبون بأدائها بالجملة ، والشاهد الذي أريد ايراده من تاريخهم قريب من الشاهد الذي أوردته عن عمرو علي (عليهما الرضوان) في معاملة اليهودي ، وهو بعض خبر أبي اسحق الصائبي . لا أعني بذلك اعتراف الخلفاء بفضله وتقليد إياه الاعمال الجلائل مع ديوان الرسائل ، وإنما أعني ما كان بينه وبين الطبقة العليا من المسلمين من الموادة والمخالقة ، نذكر منها بعض خبره مع الشريف الرضي ، وهو من طمت مكاتبه من الشرف الباذخ والسؤدد الرفيع ، وكان في العلم لا يضاف اليه كفتيح ولا يقرن به نديد ، وهو من أئمة الشيعة وكفاك أنه اجتمعت له الاجادة في المنظوم والمثور مما ، وهي - كما قال ابن خلدون - لا تنفق الا للاتل ، ولقد كان يمايل أبا اسحق معاملة الا كفاء والنظر اء مع انه كان يسامى الخلفاء ويحاولهم ويفاخرهم في مجالسهم ، حتى ان الخليفة

القادر بالله كان يهيم بالتطلع الى الخلافة لانه يرى نفسه أحق بها لمكانة
نسبه ، وعلمه هذا وأبو اسحق من الصابئة الذين هم أضعف وأحق فرقة
من فرق الاديان ، لكنه كان فاضلا بليغا فلم يحل خلاف دينه وضعف
طائفته دون معاملته بما يستحق فضله من الاجلال وتقليد الاعمال. ولقد
كان مثل الشريف يحمله لفضله وأدبه ، لا لوظيفته ومنصبه ، ومن آية ذلك
صرثاته التي رثاه فيها بعد موته ، فان فيها من الثناء عليه ما يربى على ما كان
يكتبه له في حياته من المراسلات المنظومة والمشورة ، واننا نأتي ببعض أبياتها
وان كانت مشهورة زيادة في البيان . مطمح القصيدة

أظمت من حملوا على الاعواد أرأيت كيف خبا ضياء النادي
(ومنها)

بعداً ليومك في الزمان فانه لا ينفد الدمع الذي يبكي به
كيف اعمى ذلك الجنب وعطلت كيف اعمى ذلك الجنب وعطلت
قد كنت أهوى ان اشاطرك الردى قد كنت أهوى ان اشاطرك الردى
سودت ما بين الفضاء وناظري سودت ما بين الفضاء وناظري
شكلك ارض لم تلد لك نائيا شكلك ارض لم تلد لك نائيا
ليس الفجائم بالدخائر مثلها ليس الفجائم بالدخائر مثلها
لا تطلي يا نفس خلا بعده لا تطلي يا نفس خلا بعده
الفضل ناسب بيننا ان لم يكن الفضل ناسب بيننا ان لم يكن
ان لم تكن من أسرتي وقبيلتي ان لم تكن من أسرتي وقبيلتي

ان الوفاء كما اقترحت فلو تكن حياً اذا ما كنت بالزاد
ضاعت علي الارض بمدك كماها وتركت اضيقتها علي بلادي
لك في الحشا قبر وان لم تأوه ومن السموع روائح وغواد
الي أن قال في آخرها
صفح الثرى عن حروجهك انه مغرى بطي محاسن الاجاد
وتماسكت تلك البنات فطلما عبث البلي بأنامل الاجواد
وسقائك فضلك انه أروى حيا من رائح متعرس او غاد
ان الشريف الذي قال ان الفضل ناسب بينه وبين أبي اسحق وانه
كان أعلق نسبائه وأسرته ووداده هو الذي أنشد الخليفة القادر بالله هذه
الايات (من قصيدة) في مجلسه وهي :

مهلا أمير المؤمنين فانا في دوحه العلياء لا تنفرق
مايتنا يوم الفخار تقاوت أبدا كلانا في الفاخر معرق
الا الخلافة ميزتك فاني أنا عاطل منها وأنت مطوق
وهو الذي رثى الخليفة العادل والامام المجتهد عمر بن عبدالعزيز الذي
رفع من شأن آل البيت الكرام بعد اضطهادهم من سلفه الامويين والذي
مناقبه وما أثره لا تحصى فاقصر من مدحه علي مثل قوله

يا ابن عبد العزيز لو بكت العيون فتي من أمية لبكيتك
غير اني أقول انك قد طببت وان لم يطب ولم يزك ييتك
وعجيب أني قلت بني مر وان طرا وانني ما قلتك
يقول انه لا يمكن البكاء علي عمر بن عبد العزيز، وقال ان الدمع
الذي يبكي به أبا اسحق لا ينفذ لان له مدادا من القلب ويعجب أنه لم

يقبل عمر وينفضه ولم يقل انه يحبه ، وقد عهد الى نفسه ان لا يتخذ خلافاً بعد
أبي اسحق ، وقل انه أدانق أهله وأنسابه بوداده ، وهذا مما يؤيد قونا
السابق ان الافراط في التعصب الديني لم يهد من المسلمين الامم المخالفين
في المذهب دون المخالفين بأصل الدين ، كما انه وقع منهم التعصب للجنس
أحياناً ولا حاجة لبيان ذلك لانه مما لا نزاع فيه . وهذا الشاهد الذي
أوردناه له نظائر كثيرة يعرفها من نظر في كتب التاريخ الاسلامية
لا سيما قبل الحروب الصليبية

وأما الدولة العلية العثمانية فحسبك من حسن معاملتها للمخالف لها
في الدين وهي في أوج عزها ومنتهى قوتها ، ما كان من السلطان محمد الفاتح
مع الروم يوم فتح القسطنطينية واقرارها للبطريق على امتياز وامتياز
طائفته ، واعطائهم الحرية الكاملة ، ومنحهم الرعاية الشاملة ، وتسجيل ذلك
في قوانين المماليك ، وجعله عهداً متبماً في الدولة لا ينقض ، تعطى للبطارقة
به الوثائق { القرامين } السلطانية من ذلك العهد الى الآن خلافاً لما كان
يعاملهم به الكاثوليك من القسوة والاضطهاد . ولقد كان عرض على
الروم الخضوع لكنيسة رومية بازاء انتصار اخوانهم الكاثوليك لهم
واغاثتهم من العثمانيين فاثتمروا بينهم وأقروا على ان رؤبة تاج السلطان
محمد في مذبح كنيسة آياصوفيا أهون وأحب اليهم من رؤبة عراقية
(قبعة مخصوصة) كردينال من جماعة البابا فيه ، ولولا أنهم كانوا يعلمون
من العثمانيين العدل والاحسان والمجاملة لما فضلوا سلطتهم على الاتحاد
مع اخوانهم في بعض قضايا الدين ، وبقاء سلطتهم لهم ولم تزل تلك الامتيازات
مرعية الى اليوم وربما نذكرها في فرصة أخرى لمناسبة تمن

لقد ساء العثمانيون من سبقهم من العباسيين والامويين في رفع مخالفتهم في الدين - لاسيما النصارى الى المناصب العالية، فحطت الدولة حكماً للصرب وللملكيين من اليونان فآووا وكانوا نعتهم من الكافرين، وقد كان منها مثل ذلك في عهد كانت ترتعد فيه أوروبا من بأسها، وما فتئ جارياً بجرعة الاستمرار الى هذا الحين، ثم لم يكن السير على نحو واحد لما تقتضيه طبائع الاوقات من اختلاف الحالات، وكلنا شاهد رعاية الدولة العلية لطائفة الارمن حين رأت من جدم واجتهادهم في العلم والعمل حتى انها قبلتهم الاعمال الجليلة لاسيما في المالية ورفعت غير واحد منهم الى مقام الوزارة، وبالجملة قد ميزتهم حتى على العرب الذين أكثر رعاياها وأخلصهم وأكثرهم على دينها، فقابلوها على ذلك بالكنود والكفران والحياة والمصيان. كان منهم من يظهر المضرة في صورة المنفعة، ويلبس الامانة ثوب الحياة، كأغوب باشا الذي قرر خفض مرتبات وأجور صفار العمال بحجة توفير المال في الخزينة، وهو يعلم انه يضطرهم بذلك الى الرشوة التي تفسد السلطنة وتضع بنيانها

ويلعلم أكثر القراء (المصريون) ما كان من خدمة نوبار باشا لانكلا في مصر التي ثبتت أقدامهم فيها على حين كانت في زلزال، وأمر الاحتلال قرين الاحتلال. وقد انتهى أمر الارمن في الدولة الى الثورات والفتن والسعي في احراق الباب العالي ونسف البنك العثماني واز شئت فقل بمحو الدولة العلية حماها الله تعالى من دول الارض - كل هذا يكون بدساتيس أوربا ثم لا يخجل عظماء ساستها أن يقولوا ان الدولة متعصبة تهين رعاياها المسيحيين فيجب انقاذهم. وانما هي القوة تقول للضعف

ما تشاء - ما أصاب المسيحيين من حسنة في ظل الدولة العلية فزعم
أوروبا انه كان خوفاً منها أو تسمية طليها ، وما أصابهم من سيئة ففقره
بتعصب الدولة وتحمسها ، وان تاريخ الدولة يكذبها في زعمها الذي تفش به
الجهلاء والمخدوعين

كانت أوروبا على عهد السلطان سليم ياوز ترتد فرائصها من خشية
الدولة العلية ، وكانت الولايات المسيحية الاوربية العثمانية تكثر الخروج
على الدولة لاسيما في ايزان اشتغال الدولة بالحرب ، وما كان يجرؤها على ذلك
الا خفض العيش وقرط الطيش ، فارتأى السلطان سليم رحمه الله تعالى أن
يجرم على الاسلام أو يمزق عصيتهم بالتشيت والتفريق باجلائهم عن
أوطانهم ، فاستفتى شيخ الاسلام العلامة أبا السعود فأفتاه بعدم جواز
ذلك شرعاً ، فمدل عن رأيه وان كان لرأيا سياسيا حكما . فهل كان ذلك
عن خوف أو مصانعة لاوروبا أم هو الدين الاسلامي الذي يقول كتابه
العزير « لا إكراه في الدين » وتصرح سنته بأن من آذى ذميا كان النبي
صلى الله عليه وسلم خصمه يوم القيامة ونحو ذلك من النصوص

وخلاصة القول ان الفلو في الدين أو التحمس الديني وهو ما يطلق
عليه أهل العصر التعصب هو مما نهى عنه الدين الاسلامي صريحا
« لا تغلوا في دينكم » وآداب الاسلام وأحكامه تنافيه كما تنافيه أيضا
آداب الأنجيل ومواعظه ، ولم يضرم الاوربيون نيرانه في العالم قديما
وحديثا اتباما للأنجيل وان كانوا أظهروه بمظهر ديني ، بل لم يلبس الدين
قلوب الاوربيين في عصر من الأعصار ، وما كانوا متبعين للأنجيل يوما
من الايام وأما قول الأنجيل ما جئت لالقي سلا ما انا جئت لالقي سيفا

انما جئت لاتي نارا، فليس معناه الامر بالحروب والفتن، وانما هو اخبار عن المستقبل، أي انه بسببه يحصل هذا وان لم يكن مأموراً به ولا مرضياً، هذا ما تفهمه من تطبيق مثل هذا النص على سائر النصوص التي تصرح بوجوب الخنوع والتسليم لاي حاكم، واعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وهي كثيرة ولا تسمع من رجال هذا الدين الا انه دين سلام واستسلام وانما حارب الاوريون لاجل الدين المسيحي واكرهوا الناس عليه اجيالاً وغلوا فيه غلوا كبيراً، حتى سرت عدوى غلوم وافراطهم في تصبهم الى غيرهم ممن جاورهم، لان روح الحرب والقتلة كان صاحب السلطان الاكبر عليهم، والمصرف لاجسادهم قبل دخول الدين المسيحي في بلادهم، ولقد تناولوا الدين من أبناء الرومانيين وهم - كما قال في العروة الوثقى - « على عقائد وآداب وملكات وعادات ورثوها عن اديانهم السابقة، وعلومهم وشرائعهم الاولى، وجاء الدين المسيحي اليهم مسالماً لعوائدهم ومذاهب عقولهم، وداخلهم من طرق الاتناع ومشاركة الخواطر، لا من مطارق البأس والقوة، فكان كاطراز على مطارفهم، ولم يسلبهم ما ورثوه عن اسلافهم، ومع هذا فان صحف الانجيل الداعية الى السلامة والسلم لم تكن لسابق العهد مما يتناوله الكافة من الناس، بل كانت منخورة عند الرؤساء الرومانيين، ثم ان الاحبار الرومانيين لما أقاموا انفسهم في منصب التشريع وسنوا عمارية الصليب ودعوا اليها ديمومة الدين التحمت آثارها في النفوس بالعقائد الدينية وجرت منها مجرى الاصول، ولحقها على الاثر تزعزع عقائد المسيحيين في اوربا وافتروا شيئا وذهبوا امذاهب تنازع الدين في سلطته، وعاد وميض ما اودعه اجدادهم في جرائم وجودهم ضراماً، ثم ارشدتم

النظر في طبائع الكون والاعتبار بحالهم وماضيهم الى استعمال الدين آلة
سياسية، وهذا ما يحمل حكومة تصرح رسمياً بأنه لا دين لها على اعلان
حمايتها النصرارى الكاثوليك في الشرق، وهذا بعينه هو الذي عمل قيصرة
الروس على ادعاء الرئاسة الدينية واعلان حماية الروم الارثوذ كس، ومن هنا
نرى الفتن التي تحدث في بلاد الدولة من النصرارى تظهر على أيدي أبناء
مذهب الدولة الاوربية المحركة للفتنة، فالنيران التي اشتعلت في البلقان قبيل
اعلان روسيا الحرب على الدولة العلية انما أشطها الارثوذ كس قسيسوهم
وطامتهم، والنيران التي أضرمت اخيراً في أرمينيا انما أضرمها البروتستانت
بعض بريطانيا العظمى البروتستنتية، وانما يذم الافرنج والمغربون التعصب
الديني ليخدعوا الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً فيجعلوا رابطتهم الدينية
التي هي أقوى الروابط الجامعة بينهم على اختلاف لغاتهم وأجناسهم،
ويعموم عن تمصيبهم وتحمسهم، لكنهم كثيراً ما يحملهم الاغراض والمقاصد
السياسية على التصريح بالحقيقة فقد صرحت جريدة الطان وهي من
أشهر جرائد فرنسا بأن حرب الانكليز للسودان يمثل واقعة من وقائع
الحروب الصليبية، وصرحت بعض الجرائد النمساوية والالمانية الشهيرة فيما
افادنا البريد الاخير بان الخطة التي تجري عليها أوربا مع مسلمي كريت هي
السبب في كل اضطراب حدث ويحدث في الجزيرة، وان حالة الجزيرة قد
ساعت منذ تولت أوربا ادارة أحكامها وشؤونها، وهي تزداد كل يوم
خراباً ودماراً، فالمسيحيون واقعون في ضيق شديد وهذاب أليم، ولكن
هذاب المسلمين وضيقهم أعظم، لانهم محرومون من جميع حقوقهم تقريباً،
وقد صبروا زمناً طويلاً على مصائبهم وخطوبهم حتى ملوا صرارة الصبر

وعذاب الاتصار ، وطفحت الكأس الى الاصاب . هذا ما تعترف به جرائد
الامتين اللتين اتصلت حكومتاهما عن أوروبا وأبنا مشاركتها في بضياع
أهل تلك الجزيرة ، كل هذا والاميرال الانكازي يشدد في طلب تعجيل نزع
السلاح عن المسلمين دون النصارى ليمكنوا من استئصالهم عاجلا ، ومولانا
السلطان الاعظم يطلب نزع السلاح من الفريقين كما يقتضيه العدل والمساواة
في الظاهر ، وان كان في الباطن فيه اجحاف بالمسلمين لامن حيث الطلب
تسه بل من حيث ان المسيحيين أكثر عددا وعددا ، والاوريون يحملونهم
برا وبجرا ، كما تصرح بذلك الجرائد المسيحية قالت الاهرام (وعندنا ان
جلالة السلطان مصيب فيما يفترضه من نزع السلاح من المسيحيين والمسلمين
في كريت لامن المسلمين وعدم ، اذ ليس من العدل ولا من الحكمة ان
تجبر الفئة القليلة وهي لاناصر لها ولا معين ، وتبقى الفئة الكبيرة القوية
مسلحة وهي محمية بيوارج الدول ومد رعاتها) اه .

لقد قلنا ان تمصب أوروبا في هذه الازمنة مموه ، وكان في المصور
الساعة مشوها ، وأبلغ من هذا ما نقل عن سيدنا ومولانا أمير المؤمنين
انه قال لبعض كتاب جرائد أوروبا « ان أوروبا تحاربنا حربا صليبية في شكل
سياسي » لكن مسألة كريت خرجت عن دائرة المحاولات السياسية الى
المدوان الظاهر ، وتجلي فيها الافراط في التمصب الذميمة في أقبح صورته
المشوهة ، ولقد ذم أوروبا ولعن اتفاق دولها المظالم كل كاتب حتى كاتب
المقطع فاعتبروا بمدينة أوروبا يا أولي الابصار

فيا أيها المسلمين نمسكوا بدينكم وتمصبوا فيه ، واعتصموا بحبل الله
جميعا ولا تفرقوا ، ولا تعدوا في تمصيح حدود العدل فتمتدوا على جيرانكم

المخالفين لكم في الدين ، فان ايذاء أي مخالف من ذمي ومعاهد ومستأمن
وبعبارة أخرى غير حربي حرام في دينكم ، وخروج عن هديه القويم ، سواء
كان الايذاء بالقول أو الفعل ، ومن قال لكم ان التعصب بهذا المعنى مذموم
فهو غاش مخادع ، يريد ان يفتنكم عن دينكم الذي لا تقوم لكم قائمة بدونه ، بل
ما أصبتم بالمصائب واتابتم النوائب الا باحرافكم عما كان عليه سلمكم الصالح ،
وتشبهكم بالبدع وانفاسكم في الشهوات واقترافكم المنكرات .
لا أعني بالبدع والمنكرات اختلاف اشكال الازياء وألوان الطعام والشراب
المباحين ، فان المخالفة في هذا ليست مخالفة في الدين وانما هي مخالفة في
المادات ، وانما أعني الانحراف عن اخلاقهم الفاضلة وأعمالهم النافعة ، كالغفة
والشجاعة والعدل وعلو الهمة وعزة النفس والتواضع وما يجنب عنها وعن
أمثالها من الآثام ، لا تكونون مؤمنين حتى تكونوا - كما قال الله تعالى - أخوة ،
أبؤكم جميعا خليفة المسلمين الذي يجب على كل مسلم في مشارق الارض
ومقارها الخضوع له والاعتراف برئاسته ، ولا يلومكم على هذا بنو وطنكم
المخالفون لكم في الدين ، كما انكم لا تلومونهم على خضوعهم لرؤساء دينهم
في الممالك الاخرى ، كخضوع الكاثوليك الثمانيين لحضرة البابا . وان
مقام الخلافة في الاسلام ، أعرق في الدين من مقام البابوية في النصرانية ،
فان الصحابة لم يدفنوا النبي صلى الله عليه وسلم إلا بعد تعيين الخليفة عنه .
أما السلطة البابوية فقد أفادنا التاريخ انها تأسست في أوائل القرن
السابع للميلاد وأول من رتب قوانين الكنيسة ووضع رسومها هو البابا
غريغوريوس الاول الذي تولى من سنة ٥٩٠ إلى ٦٠٤ ومعلوم ان

سلطة خليفة الاسلام روحية وزمنية (سياسية) من الاعلى ، أما البابوية فقد أنيطت بها السلطة الزمنية في أثناء القرن الثامن للميلاد إثر مقاومة البابا لقانون ليون قيصر القسطنطينية القاضي بإزالة الصور والتماثيل من الكنائس ، ونجاحه في ابطال العسل بما سنه القيصر وفي سنة ٨٥٠ م ابس البابا الملك شرلمان التاج وسمى شرلمان حاميا للمسيحين ورئيسا جسرانيا لهم كما ان البابا رئيس روحاني وكان نصب البابا مشروطا بتصديق الامبراطور (ولا تنس ما نقل عن جوستيانوس قيصر القسطنطينية في ذلك) مع هذا فانك نجد فرقة الكاثوليك وهي أكبر فرق النصرى خاضعة أم الخضوع الذي لسلطة البابا حيث اتفقوا بعد عدة قرون من وجود ديانتهم على ذلك ، فما بالنا نحن المسلمين لا نربط بخلقيتنا مع وجود الاوامر بذلك في الكتاب والسنة مسمولا بها من ابتداء وجود الامة ؟ أتحسني ان يقال انا متعصبون ؟ ان كان معنى التعصب ما ذكرنا فلنكن متعصبين ، فان من يعزنا بذلك أشدنا تعصبا ، ونحن نرى الجذع في عينه قبل ان يرينا القذى في عيننا ، وان كان التعصب مباداة عن اهلالة المخالف وإيذائه وإكراهه على ترك دينه ولو بضروب الخيل فنحن أبرأ الناس من التعصب ، وأبعد عنه قديما وحديثا .

نم قد اخرجنا اليه خصنا في بعض الأزمنة لكن لم يكن الا كسحاب الصيف عن قريب يتشعب ، ولا تزال أوروبا تظلمنا بسوء مما ملنا لنا وافشلتنا علينا بحجة الانتصار للمسيحين ما لانعلم ، وما منناه ان نرسخ في هذا العلم الا الدين الاسلامي الذي « يأمر بالعدل والاحسان وابتاء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغى » على اننا لسنا متمسكين به على وجه

الكمال، ولو صرفنا « والعباد بالله » كما صرفت أوروبا لافراطنا في التعصب كما افراطت وبقينا كما بنت، وقد قلت ولا أزال أقول لا يصد عن القلوب والافراط في التعصب الا التمسك بأداب الدين الصحيحة، فمن كان يحب الإصلاح ويرغب في الوفاق بين المختلفين في الدين لاسباب المسلمين والنصارى فليأمر الاولين بأداب القرآن والآخريين بمواعظ الإنجيل، وعلى الله قصد السبيل، ومن حاول الإصلاح في الشرق بنير هذا فقد حاول المستحيل

فيأيتها العثمانيون ان لكم مخادعين من أفسكم تأمنون جانبهم، وتوهمون غيرتهم، قد أوضوا خلالكم يفتونكم الفتنة وفيكم ساعون لهم، فاحذروهم على وطنكم وبلادكم، فانهم ياملون على انحلال عصبيتكم الدينية والجنسية العثمانية معاً، يفتنون اليكم دولتكم، ويسعون في امارة لتكم واجباة لغات أوروبا، ويلتقون بينكم وبين بني وطنكم المداوة والبغضاء بمنوان الدين، وما ذلك الا هدم الدين ليضم كل منكم يده في يد شريكه في وطنه، وتعاونوا على الاعمال النافعة، وتعاملوا بالامانة والصدق، لتقوى فيكم المحبة التي تنفر معها الهفوات، ويعنى عن السيئات، لا تتخذوا الاوروبا يا فيها أنتم اولاد تشاهدون كيف اتفق أعظم دولها على شقاء اخوانكم في كريت. حافظوا على جامعتكم العثمانية واجتهدوا في عدم الترية التي تصلح أحوال الحاكم والمحكوم، ولا يجر منكم اختلاف الدين والمذهب على ان لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب التقوى، واتقوا الله ان الله عليم بذات الصدور